نظام الفعلية في العربية

بقلم الدكتور ابراهيم السامرائي

أشار علماء الساميات الى ان مجموعة اللغات السامية شديدة الاهتمام بالفعل ، وأن « الفعلية » من خصائصها ، وأن الفعل يشغل فيها مكانة كبرى بناءً وصرفاً ونحواً واستعمالاً . ولعل هذه المسألة أشد وضوحاً وبروزاً في العربية منها في أخواتها الساميات، فقد توسعت العربية في مسألة الفعلية توسعاً لانجده في جميع اللغات السامية الباقية منها والمندثرة .

وقد بدا لي ان اجعل الفعل موضوعاً لهذه المقالة فاتخير منه موادّ لم يعرض لها الأقدمون ، أو أنهم ذكروا فيها شيئاً لايتصل بحقيقتها فلم يهتدوا الى الوجه الصحيح اما لنقص في أدواتهم واما لبعدهم عن الاسلوب العلمي الذي يقوم على المقارنة اللغوية في بحث المسائل اللغوية السامية .

ومن هذه المواد الفعلية « ليس » ، ولمسألة « ليس » باب في النحو لا يهتدى فيه الدارس الى شيء من حقيقتها نحواً ولغة . فهي من أدوات النفي وهي تتطلب معمولين مبتدأ وخبراً .

وبسبب العمل وهو عدم الاكتفاء بالمرفوع أو قل ان هذا المرفوع مفتقر الى ما أسموه بـ « الخبر المنصوب » . أقول بسبب من هذا ضموا مواد مختلفة في دلالاتها الى بعضها وجعلوا من تلك الأشتات المتنافرة باباً واحداً أسموه بـ « النواسخ » .

ولعل من الغريب ان يحشر بين هذه المواد الدالة على الإيجاب مادة « ليس » وهي على النقيض من هذه المجموعة ، فهي من المسائل التي ينبغي ان تكون في مبحث النفي .

ويبدو ان الأولين كانوا في تردد بسبب من هذه المسألة فقد كانت عندهم مترددة بين الحرفية والفعلية ، فذهب الجمهور الى أنها فعل ، وذهب الفارسي - في أحد قوليه - وابو بكر بن شقير - في أحد قوليه - الى أنها حرف [1] . ان هؤلاء كانوا على حق في ترددهم في حمل هذه المادة على سائر الأفعال التي اشبهت « كان » في العمل .

ويحسن بنا في بحث هذه المادة ان نطالب بابعادها من المكان حيث وضعها النحاة وجعلها في باب المواد التي تنفي ، هذا من حيث وظيفتها في الكلام ، أما من حيث بناؤها وأصلها التاريخي فشيء آخر يبعدها عن الالحاق بهذا الشتيت من الأفعال التي « تعمل عمل كان » [2] . يرى الخليل بن احمد أنهـا مركبة من « لا ايس » فطرحت الهمزه والزمت اللام بالياء [3] . وهو قول الفراء ايضاً والدليل على ذلك قول العرب « أئتني به من حيث أيس وليس أي من حيث هو ولا هو » [4] .

أما غير الخليل من البصريين فقد ذكر بخلافه ، فذهب ابن السراج الى أنها حرف بمنزلة « ما » والى هذا ذهب أبو علي الفارسي وابن شقير وغيرهم [5] .

أما القول لفعليتها فهو كثير ، قال ابن سيده : « ليس : كلمة نفي وهي فعل ماض أصلها « ليس » بكسر الياء » [6] .

وذهب ابن هشام الى أنها فعل لا يتصرف ، وزنه « فَعِل » بكسر العين ، ثم التزم

---

(١) شرح ابن عقيل « نشر محمد محيي الدين عبدالحميد » القاهرة ١٩٣١ ج ١ ص ١٣٧

(٢) انظر « دراسات في اللغة » ص ٥٥

(٣) لسان العرب ، مادة « ليس » .

(٤) الزبيدي ، تاج العروس ، مادة ليس » .

(٥) ابن هشام ، المغنى ١/٢٢٧ (حرف اللام) .

(٦) لسان العرب ، مادة ليس

تخفيفه ، وقال : « ولم نقدره « فعـل » بالفتح لأنه لا يخفف ولا « فعُل » بالضم ، لانه لم يوجد في يائي العين » [١] .

وقول العرب « ائتني به من حيث أيس وليس » مفيد في هذا الباب ، ذلك ان «أيس» يعني الوجود و « ليس » يعني العدم .

والنظر في اللغات السامية يدل على هذا ، فالمادة «يش» في اللغة العبرانية تفيد الوجود . ولعل « شيء » في العربية تذهب الى ما تذهب إليه نظيرتها العبرية . ومثل هـذه المادة « ايث » في الآرامية وكل هذا يفيد الوجود . وقد ركبت هذه المادة مع « لا » فجاء من هذا المركب ما يصلح ان يكون نفي الوجود . والى مثل هذا ذهب بركشتراسر المستشرق الألماني في محاضراته الموسومة بـ « التطور النحوي » [٢] .

ولو رجعنا الى العربية وقصرنا عليها البحث دون النظر في اللغات السامية لوجدنا فيها ما يؤيد القـــول بتركيب « ليس » من « لا » و أيس » . فقولهم « أيس » للدلالة على الوجود يقابله في العربية مادة « شيء » ولعلها مقلوبة كلمة « ايش » السامية التي وجدت في العبرانية في هذا المعنى ، وقد تحجرت في العربية في جمـل معدودة مفيدة في كتب اللغـة بقولهم « ايس » . فـكـأن « ليس » « لا أيس » أي أنهـــا من « لا ايش » ومعناهـا « لا شيء » ثم قوي التركيب على طريقة النحت فصارت « ليس » [٣] .

وقد حفلت العربية بطائفة من الافعال كان لابد على المعنيّ بالصرف واللغة ان يعرض

---

(١) ابن هشام ، المغني ١/٢٢٧

(٢) بركشترامر ، التطور النحوي ص ١١١

(٣) ولابد للباحث في « ليس » ان يعرض لـ « لات » وهي من أدوات النفي التي الحقها النحويون بـ « ليس » للتشابه بالعمل .

وقد علل النحويون التاء في هذه المادة فقال بعضهم : انها للتأنيث ، وقال آخرون : انها للمبالغة . ولا تخرج من كلا القولين بفائدة ، فهي ليست للتأنيث لأنها متحركة . كما انها ليست للمبالغـة لان فـكرة المبالغة غير حاصلة فيها . ولم يفطنوا الى تركيبها ، كما لم يفطنوا الى تركيب « ليس » فان « لات » مركبة من « لا ايث » فصارت في العربية « لا ايت » ثم تحولت الى « لات » .

لها باحثاً ومحققاً ومؤرخاً ولكنها مرت في المطولات اللغوية دون ان تأخـــذ من عناية اللغويين الاقدمين ما تستحق من الدرس . ومن هذه المواد الفعل « هراق » .

ليس الفعل « هراَق » من أبنية الافعال المعروفـة ، وعلى هـذا فلابد ان يكون أصله « أراق » ، والنظر في كتب اللغة المطولة يدل على هذا الابدال الغريب . وهذا الابدال قد عرض لهذا الفعل في لغة عربية قديمة فجاء في شعر المتقدمين والجاهليين ، مما يدل على ان الهاء المبدلة من الهمزة في هذه الكلمة لغة من اللغات الخاصة وان لم نفد ذلك من كتب اللغة ، كما أن الزيادة بالهمزة في اول الفعل على هذا النحو حاصلة في العبرانية ولغات سامية أخرى .

قال الازهري : هراقت السماء ماءها وهي تهريق والماء مُهراَق ، الهـاء في ذلك كله متحركة لإنهـا ليست بأصلية انمـا هي بدل من همزة أراق قال : وهرقتُ مثل « أَرَقت » والأصل « أرقت » [1] .

ويبدو ان من هـذا الابدال احرفـاً قليلة هي : هَرَحتُ الدابة وأَرحتها ، وهَـنَرتُ النار وأَنرتها . ولابد ان نشير الى أنهم توهموا أصالة الهاء فقالوا : أهرَقتُها فزادوا همزة في أول الفعل مرةً اخرى ، وقولهم « مُهراَق » و « مُهراَقة » من باب توهم أصالة الهاء فكأنها غير مبدلة . انشد ابن برّي :

رب كأس هرقتها ابنَ لؤيٍّ حذر الموت لم تكن مُهراَقه

وقال النابغة :

.. .. وما مُهريقَ على الانصاب من جدِ

وقد حكى سيبويه « اهراق الماء يُهرقه إهراقاً » كما حكى « أهراقَ يُهريق » ، ومن ذلك قول كثير :

فأصبحت كالمهريق فضلة مائه لضـــاحي سرابٍ بالملا يترقرق

---

(١) لسان العرب (هرق)

وقد جاء المصدر لهذا الفعل باثبات الهاء في قول ذي الرمة :

فلما دنت إهراقة الماء أنصتت لأعزلةٍ عنها وفي النفس أن أثني

وهكذا فان أصول هذا الفعل قامت على زيادة الهمزة في الاول ، ثم ابدلت الهاء من الهمزة ، ثم توهمت هذه الهاء من أصول الكلمة ، ثم خُرِم من الفعل شيء من أصوله هو عين الكلمة فصار « هرق » .

ولعل هذا الذي جرى لهذا الفعل من التغير ما جر إليه الاستعمال اللغوي في مسيرته الطويلة .

ومن هذه الأفعال التي رغبت ان اقف عليها الفعل « تقى » .

وهو فعل جاء على زنة « قضى يقضي » فقيل : تقى يتقي ، ومنه الأمر « تقِ » قال الشعبي :

تَقِ الله لا تنظر إليهن يا فتى وما خلتني في الحج ملتمساً وصلا

وهذا الفعل قد حصل من توهم أصالة التاء في « اتّقى » المزيد على بناء « افتعل » ثم خرم على هذا النحو فصار « تقى يتقى » . وكأن الواو غير موجودة في بنائه في الأصل .

ومن هذه الافعال الفعل « خَنْشَى » وهو بناء غريب نقل من الاسمية فيقال : «خنثاه يخنثه اذا صيره كالخُنْثَى . وهو من باب صوغ الفعل من الاسم لضرورة خاصة او للتوسع الذي جرت عليه العربية باهتمامها بالفعلية الغالبة . وهذا في قول المتنبي :

خَنْثَى الفحول من الكماة بصبغه ما يلبسون من الحديد معصفرا

ولعل مثل « خنثى » هذا الفعل النادر « سلقى » بمعنى ألقاه على قفاه . ويبدو لي انه مأخوذ من « استلقى » بطريقة من الخرم والخزل على النحو الذي ورد .

وورود هذه النوادر في العربية دليل على قدم العربية في صوغ الافعال ومجيئها خارجة على الابنية الشهيرة المعروفة .

ولابد ان نلحق بهذه المواد بقية مما أطلق عليه الافعال الجامدة وهي من النوادر التي لم يقف عليها اللغويون وقفة طويلة .

ومن هذه الجوامد الفعل « قلّ » بصيغة الماضي المفيد للنفي المحض فقد ذكروا من أمثلة ذلك قولهم : « قلّ رجلٌ يفعل ذلك ، « وقلّ رجلان يفعلان ذلك » والمراد النفي أي « ما رجل يفعل ذلك . . . » [1] .

واكثر ما تستعمل « قلّ » للنفي متلوة بـ « ما » الزائدة . قال سيبويه [2] : يقال : « قلّ رجلٌ » و « أقلّ رجل يقول ذلك إلا زيد » اي : ما رجل يقول إلا هو .

ومن استعمالها متلوة بـ « ما » الزائدة قول الشاعر :

قلما يبرح اللبيب الى ما يورث المجـــد داعياً أو مجيبا

اي لا يزال داعياً . وفي هذه الحالة جاء متلوّ « قلما » فعلاً وقد أفرغت « قلّ » عن فعليتها فليست مقتضية فاعلاً .

وقد يليها الاسم في ضرورة الشعر كقول الشاعر :

صددت فأطولت الصدود وقلما وصال على طول الصدود يدوم

وقد تستعمل « قلما » لإفادة الفعل القليل كما جاء في « كليات ابى البقاء » [3] . ومما يدلنا على افادة النفي المحض في اســتعمال قلما وقوعها في اسلوب الاستثناء للنفي أي انها بمنزلة « ما » النافية كقولهم : « قلما يفعل هذا إلا كريم » ، اي : « لا يفعل هـــذا إلا كريم » .

وفي قوله تعالى : « قليلاً ما يؤمنون » أي « فهم لا يؤمنون » ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « إنه كان يقل اللغو » أي لا يلغو .

ونظير « قلما » في تفرغها من الفعلية وما تقتضيه من الوجه النحوى استعمالهم « طالما ، وكَثُر ما ، وقَصُرَ ما ، وشدّ ما » فان لهذه الافعال أصولاً فعلية ولـكنها

---

(١) السيوطي ما همل الهوامع .

(٢) القاموس المحيط « قل » .

(٣) انظر كليات أبى البقاء العكبري في الموضوع .

حين تليت بهذه الزيادة تفرغت إلى اشياء أخرى وانصرفت في معانٍ حديدة وهى كلها لا تقتضي الفاعل النحوي الذى يسند اليه الفعل في العربية .

ومن هذه المواد الفعلية استعمالهم « سُقِط في يده » بالبناء للمجهول ، والمعنى ندم وتحيّر وأخطأ . قال تعالى : « ولما سقط في أيديهم » .

وقد ذهبوا الى ان هذا الاستعمال مما اختصت به لغة الذكر العزيز فلم يؤثر عن العرب هذا الاستعمال المجازي الذي يرمي الى هذه الخصوصية المعنوية .

ومن هذه الافعال النادرة استعمالهم « هدّ » في قولهم : « هذا رجل هدّك من رجل أي « حسبك من رجل » وقيل معناه « اثقلك وصف محاسنه » . وفيه لغتان منهم من يجريه مجرى المصدر فلا يؤنثه ولا يثنيه ولا يجمعه ، ومنهم من يجعله فعلاً فيثنى ويجمع [1] .

قال الزمخشري [2] : « هذا رجل هدّك من رجل » اذا وصف بجلد وشدة أي غلبك وكسرك . وهو يثني ويجمع ويذكر ويؤنث . تقول : هذا رجل هدّك من رجل ، وهذه امرأة هدّتك من امرأة ، وهكذا في التثنية والجمع . . .

ويقال : لَهَدَّ الرجل » للمدح بمعنى « نِعمَ » وذلك اذا نعت بالجلد والشدة فيقال : « لَهَدّ الرجل » للتعجب اي : « ما اجلده وما أشده » .

وفي الحديث : « ان ابا لهب قال : لهدّ ما سحركم صاحبكم » والمراد بذلك التعجب اي : لنعم ما سحركم » [3] .

والى مثل هذا ذهب ابن الأثير في « النهاية » ، فقال : ان معناه التعجب . قال : « لهـدّ » كلمة يتعجب بها فيقال : لَهَدّ الرجل أي : ما أجلده ، وجاء مثل ذلك في « اللسان » و التاج » .

---

(١) انظر اللسان (هدد) .
(٢) انظر اساس البلاغة (هدد) .
(٣) الزمخشري الفائق (خ) .

ومن هـــذه الافعال الفعل « كذب » في قولهم « كذبك الحج » أي : ليكذبك الحج أي لينشطك ويبعثك على فعله فهو مفيد للحمل على الشيء والاغراء به والحث عليه فالمراد هو الانشاء لا الخبر .

وقد تنوقل هذا الاستعمال وفهم منه هذا الفهم في الاغراء والحديث والحمل على عمل ما هو حسن وقد جرى مجرى الامثال ، وقالوا : « كذبك الصيد » أي امكنك فارمه . والأصل كذب فيما اراك وخدعك ولم يصدقك فلا تصدقه فيما اراك بل عليك به والزمه . قال ابن السكيت : تقول للرجل إذا أمرته وأغريته : كذب عليك كذا وكذا أي عليك به وهي كلمة نادرة .

وجاء في « الصحاح » : هي كلمة نادرة جاءت على غير قياس . وعن ابن شميل « كذبك الحج » أي امكنك فحج » و « كذبك الصيد » أي امكنك فارمه » [1] .

ولعل من هذا قول الاخطل :

كذبتك عينك أم رأيت بواسط غلس الظلام من الرباب خيالا

وقالوا : « كذب نفســـه وكذبته نفسه » اذا غرّها أو غرّته ، وحدّثها وحدّثته بالاماني البعيدة . ومنه قيل للنفس : « الكذوب » ، قال الشاعر :

. . . . حتى اذا ما صدقته كُذُبه

والكُذُب جمع كذوب اي نفوســه كناية عن تفرق رأيه وانتشاره ، وقالوا في نقيض ذلك : « صدقته نفسه » أي ثبطته واضعفت عزيمته قال :

فاقبل يجري على قــدره فلما دنا صـــدقته الكذوب

وقال لبيد :

واكذب النفس اذا حدثتها ان صدق النفس يزري بالأمل

اي لا تثبطها وقوّها .

---

(١) تاج العروس « كذب »

ومن استعمال « كذب » في هذا المعنى قول عنترة :

كذب العتيقُ وماء شنٍ بارد ... ان كنت سائلتي غبوقاً فاذهبي

وقالوا : إن « مضر » تنصب العتيق بعد كذب على الاغراء ، واليمن ترفعه وقد ذكره الرضي الاسترابادي في شرح الكافية في مبحث اسماء الأفعال شاهداً على ان « كذب » في الأصل فعل وقد صار اسم فعل بمعنى الزم [1] .

ومن ذلك قول اعرابي وقد نظر إلى ناقة فقال : « كذب عليك البزر والنوى » أي عليك بهما والزمهما . وفي حديث عمر ان عمرو بن معد يكرب شكا اليه النقرس فقال : كذب عليك الظهائر أي عليك بالمشي في الظهائر ، والظهائر جمع ظهيرة وهي ما ظهر من الارض وارتفع ، وفي حديث آخر ان عمرو بن معد يكرب اشتكى اليه المعص فقال : « كذب عليك العسل » يريد العسلان وهو مشي الذئب ، أي عليك بسرعة المشي ، والمعص بالعين في عصب الرجل . ومنه حديث علي (ع) : « كذبتك الحارقة » أي عليك بمثلها ، والحارقة المرأة التي تغلبها شهوتها [2] .

وأنا اختم هذه الالمامة العجلى بالاشارة الى ان العربية التي أفادت من الفعلية كثيراً فاشتقت الافعال من مواد مختلفة فيها الجامد والمعنوي لهي من اللغات السامية المتطورة التي غلبت على أخواتها واحتوت على كل خصيصة من خصائص اللغة السامية الاولى وذلك لانها لغة كتب لها ان تظل قائمة عبر القرون الطويلة وبذلك اشتملت على اوابد القديم وطلائع ما يجد فيها وهي تتخطى القرون .

ابراهيم السامرائي

(١٨) انظر شرح الكافية (باب اسم الفعل) .

(١٩) انظر التاج (كذب) .